التصغير في شعر المتنبي : دراسة لغوية دلالية

أ. م. د. فاطمة محمد أمين العمري
الجامعة الأردنية
omari.fatema@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

كان المتنبي مُولعًا بالتصغير، يوظّفه في أشعاره ليخدم أغراضه الشعرية المختلفة ولا سيما المديح والهجاء. ومن أجل ذلك تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على ظاهرة التصغير في شعر المتنبي، مِن حيث هي سمة أسلوبية اختيارية. وتقوم الدراسة على جمع مفردات الظاهرة، وتحليلها ودراستها من خلال اللفظ والتركيب والصوت والمعنى. والدراسة تدرس المُفردة المُصَغّرة من ناحية معجمية أولاً ثم تدرسها أفقيًا من خلال دورها على مستوى البيت الشعري ثم عموديًا في القصيدة بأكملها ثم في مجمل إنتاج الشاعر. وقد خُتمت الدراسة بدراسة تطبيقية عالجت الظاهرة في قصيدة بأكملها من قصائد الشاعر التي تتجلّى فيها ظاهرة التصغير.

الكلمات الدالة: المتنبي – اللغة – الشعر – التصغير

مقدمة :

حظي المتنبي بدراسات كثيرة شملت حياته وآثاره، تعرضت بعضها لدراسة الظاهرة موضوع الدراسة. فقد أشار أبو العلاء المعري في "غفرانه" إلى ظاهرة التصغير عند المتنبي في قوله: " فأما ما ذكره من قول أبي الطيب:" أذم إلى هذا الزمان أهيله ...." فقد كان الرجل مولعاً بالتصغير، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير كقوله:

من لي بفهم أُهيل عَصْرٍ يَدّعي أنْ يَحسب الهندي فيهم باقلُ

ثم يورد أمثلة أخرى ..... ويُعَقّب قائلاً: وغير ذلك مما هو موجود في ديوانه، ولا ملامة عليه، إنما هي عادة صارت كالطبع". [١]

على أنه – المعري – لا يَخُصُّ الظاهرة بالدرس والتحليل؛ إذ جاءت في معرض رَدِّه على ابن القارح الذي تَعَسّف في تأويل قول المتنبي السابق ذكره، والمعري محب مقدر للمتنبي يدافع عنه.[٢]

وقد تعرض ابن القارح للمتنبي في حديثه عن ذلك البيت قائلاً: " ولكنه وضعه غير موضعه، وخاطب به غير مستحقه".[٣]

وقد أشار إلى ذلك يوسف البديعي في " الصبح المنبي عن حيثية المتنبي بقوله: " ومن ولوع أبي الطيب بالتصغير قوله: أذم إلى هذا الزمان أهيله..." ثم يذكر أمثلة أخرى .... ويذكر ما جاء ذكره من ذلك عند المعري.

وقد عقد العقاد باباً مستقلاً في كتابه " مطالعات في الكتب والحياة" تحت عنوان "ولع المتنبي بالتصغير، استعرض فيه إشارات المعري وابن القارح وتحدث عن صُبُوّ المتنبي للمعالي وما يفرزه ذلك من التضخيم والتهويل في شعره، واصلاً هذا بالحديث عن تصغيره مع غير قليل من الشواهد الشعرية من ذلك [٤]. ودرس الظاهرة حسن الشاعر دراسة صرفية قامت على تتبع الظاهرة وإحصائها وبحثها بالمقارنة مع مماثلتها في شعر جرير، مشيراً إلى الدراسات السابقة عليه. [٥]

كما أن محمد فتوح أحمد تناول الظاهرة جاعلاً إياها من الملامح الصياغية التي تستوقف النظر في شعر المتنبي، مبيناً دوافعها النفسية في ضوء علاقات السياق من خلال بعض الأمثلة دون التصدي للظاهرة بأكملها. [٦]ودرسها أيضاً إبراهيم عوض [٧] بوصفها سمة لغوية تميز شعر المتنبي ممثلاً عليها من شعر الشاعر، مناقشاً لآراء السابقين حول بواعث الظاهرة وبعض توجيهات الاستخدام، وبعض القضايا الصرفية المختلف في وجه استعمالها لدى الشاعر.

أمّا هذه الدراسة فتأتي لتتناول الظاهرة – ظاهرة التصغير في شعر المتنبي – لأنها سمة أسلوبية ذات طابع اختياري، ينطق عن وعي باطن عميق لدى الشاعر، ترجمه من خلال ثنائية التعظيم والتصغير، وما يرادفها من معان وتراكيب تشعبت في ثنايا الديوان. وتحاول هذه الدراسة أن توضح بواعثها – أي الظاهرة – ومسوغ استخدامها مشفوعة بدراسة استقرائية لما كان من ورودها في شعر الشاعر، وتقوم الدراسة على بحث الظاهرة معنوياً من خلال السياق وعلاقات المجاورة القريبة والأفقية، ودلالياً من خلال علاقات المجاورة البعيدة والرأسية، وما يطرحه الشاعر

من بدائل تعبيرية متنوعة للإفصاح عن الظاهرة سواء وجدت في تعبيره صراحة من خلال الألفاظ والتراكيب، أو أسقطت لتبقى ضمناً في دلالات السياق.

وتطل الدراسة على ما تنسجه الظاهرة من حقول دلالية في مختلف مستوياتها، وعلى المستوى الصوتي وما تستدعيه الظاهرة من خلال دراسة تطبيقية تحليلية للتصغير في ضوء علاقات المجاورة.

وينهض منهج الدراسة على استقراء ظاهرة التصغير ووصفها وتحليلها تحليلاً أسلوبياً مفصحاً عن مقاصدها وأغراضها لدى الشاعر.. لتفارق بذلك – هذه الدراسة – ما سبقها، في شمولية التناول، وخصوصية العرض.

بواعث الظاهرة

كان المتنبي مسكوناً بالعظمة وحب الشهرة والمجد – بما لا يخفى في شعره – وطلبهما شبَّ وشاب على ذلك. دخلت تلك المعاني روحه وباتت شاغله الأهم. ولعلها حفرت عميقاً في نفسه لتخرج بفلسفة خاصة أَطّرت تعامله مع الآخرين دَلّل على ذلك نظره إلى الكون من خلال ثنائية تلازمية بين العِظم والصِّغر رافقته في شتى المعاني والأغراض؛ فكأنه لا يلتفت إلى ما هو في منزلة الوسط. لا غرابة فهو "كالملك الجبار: يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشجاع الجريء: يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي، ولا حيث وقع". [٨] وفي هذا الإطار لذلك النظر وتلك الثنائية جاء توظيفه التصغير منسجماً مع مقصديته في شتى الأغراض.

استقراء الظاهرة

لما كان من النادر أن تُتَرجم واقعة ذهنية ما برمز واحد [٩]، فقد جاء التصغير في شعر المتنبي بنوعية: القياسي والدلالي.

أما القياسي فيقع في مجموعتين: الأولى ما جاء فيها مصغراً من الألفاظ بالاتفاق مع الاستخدام الشعري ولم يتدخل الشاعر في انتقاء الصيغة الصرفية فيها، وهي ليست من السمة الأسلوبية في شيء وهي:

(الأُحيدب ٢٩/٤١٠/ج٣ [١٠])، (البُحيرة ٣٢/٦٧/ج٢)، (البُسيطة ١/١٤٥/ج٢)، (البُويرة ٧/٥١/ج١)، (بُويه ٤٣/٣٢٦/ج٣)، (البُبيضة ٣١/١٠٤/ج٢)، (الحُسين تكررت

١٢ مـرة [١١])، (الحُميـا تكـررت ٣ مـرات [١٢])، (الرُّدينيـات تكـررت ٣ مـرات [١٣])، (الرُّهيمـة ٥٣/٧/ج١) ، (زُريق١٠/١٩٦/ج٢، ١/٣٥٢/ج١)، (السُّرَيجيات ٩/٥١/ج٤)، (سكَينة ١٥/١٢٨/ج٤)، (سُليمان تكـررت ٤ مـرات [١٤])، (سُـمَياط ٣٧/١١١/ج٣)، (سُوَيداء ١٦/٢٣٥/ج١)، (سُهَيل ٢/٢٤/ج١)، (عُبيد تكـررت ٤ مـرات [١٥])، (العُذيب ١/ ٣٢٢ / ج٢)، (الغُوَير، غُوَير ٣١ / ١٠٤ / ج٢) (قُرَيظ ١٣ /٩٠ / ج١)، (قُشَير ٢٤ / ٣٣٠ / ج٢)، (كُلَيب ٢٣ / ٨٧ / ج٣) (الكُمَيت تكـررت ٣ مـرات [١٦])، (اللُّجَين تكررت ٦ مرات [١٧])، (نُمَير٤٥ / ١٠٧ / ج٢، ٤٤ / ٣٣٧/ ج٢.)

والثانية: تمثل ما قَصَدَ الشاعر إلى تصغيره من ألفاظ، وهي هَمُّ هذه الدراسة لما تشكِّله من سمة أسلوبية. وتأتي على الأوزان القياسية الصرفية الثلاثة، وهي: فُعَيل، وفُعَيعِل، وفُعَيعيل. وقد رصدت هذه الصيغ من قِبَل الصرفيين وقَعَّدوا لها بأحكام وضوابط .. وقد وردت في شعر المتنبي إحدى وثلاثين مرة. ومما جاء من استعماله لهذا النحو القياسي من الظاهرة على وزن (فُعَيل) قوله في مديح محمد بن سيّار التميمي [١٨]:

أَذُمُّ إلى هذا الزَّمان أُهَيْلَه فَأَعْلَمُهم فَدْمٌ وأَحْزَمُهم وَغْدُ

وقوله – أيضاً – في مديح القاضي أبي الفضل أحمد الأنطاكي [١٩]:

مَنْ لي بِفَهْم أُهَيلِ عَصْرٍ يَدّعي أنْ يَحْسب الهِنديَّ فيهم باقِلُ

فصَغَّر أهلَ في البيتين السابقين للدلالة على التحقير .. فهو يحتقرُ أهلَ ذلك الزمان وينعتهم بالجهل ليخرج من ذلك بالرفعة والتميز لممدوحه ولنفسه، ومما يؤكد ذلك استعماله لكلمة أهل على أصل وضعها في موضع آخر بقوله [٢٠]:

ما نالَ أهلُ الجاهليّة كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

إذ أثبت لنفسه التفوق على أهل الجاهلية دون أن يُحَقِّرهم بتصغير "أهل" كما فعل سابقاً لأنهم – ربما – في نظره لا يستحقون التحقير كما يستحقه أهل زمانه. فانحرف عن الأصل اللغوي "لأهل" باختيار الصيغة المُصَغّرة "أُهيل" ليكشف المعنى باللفظ المصغر بدلاً من نعتهم والحديث الكثير عن الصفات القبيحة الذامَّة.

ومن التصغير على وزن (فُعَيعِل) قوله في هجاء كافور الإخشيدي: [٢١]

أَخَذْتُ بمدحِهِ فرأيتُ لهواً [٢٢]مَقالي للأُحيمِق يا حليم

فزاد على أن جعله أحمق ناقص العقل، بتصغيره للصفة، فكأنه زاده فوق الحمق حمقاً، والحمق عند الشاعر له معنى آخر يتضح في قوله [٢٣]:

والموتُ آتٍ والنُّفوسُ نفائِسُ والمُستغِرُّ بما لَديه الأحمَقُ

ومن التصغير على وزن (فُعَيعيل) قوله في هجاء كافور الإخشيدي [٢٤]:

أولى اللئامُ كُوَيفيرٌ بمعذرَةٍ في كُلِّ لؤمٍ وبَعْضُ العُذْرِ تفنيدُ

قال العكبري: (أولى من عُذر في لؤمه كافور، لخِسّة أصله وقدره وبعض العذر لوم وهجاء. يريد: أنَّ عذري في لؤمه لوم) [٢٥]. فلما كان معنى البيت تحقير وهجاء كان من تمام ذلك تصغير اسمه وتحقيره فقال: كويفير مستكملاً لما أراده من القصيدة كاملة؛ إذ نعته – فيها – بالجوعان والأسود والثعلب والعبد والكلب وأبي البيضاء (سخرية من لونه) وتحقيراً له وتقليلاً من شأنه.

أما ما كان من التصغير الدلالي وهو ما جاء حاملاً معنى التصغير من خلال دلالة التراكيب، لكنه على غير الوزن الصرفي المعروف للألفاظ، فأمثلته كثيرة في شعره منها قوله في هجاء ابن كيغلغ: [٢٦]

وتراه أصغرَ ما تراه ناطقاً ويكون أكْذَبَ ما يكون ويُقْسِم

ففي البيت إشارتان إلى صغر ابن كيغلغ الأولى: في عموم أمره، والثانية: تصغير آخر زائد عن الأول مختص بنطقه. ومن ذلك التصغير قوله [٢٧]:

ثِقال إذا لاقوا خِفافٍ إذا دُعوا كثير إذا شَدّوا قليلٍ إذا عُدّوا

قال أبو الفتح: " وصفهم بالقِلَّة لأنهم إذا انتصفوا من أعدائهم وغلبوهم في قلة عددهم فهو أفخر لهم من الكثرة" [٢٨].

الظاهرة بين الإيجاب والسلب

وتتفاوت مقصدية المتنبي في التصغير والتوظيف السياقي، فيأتي إيجابياً تارة وسلبياً أخرى.

أما توظيف الظاهرة في الإيجاب؛ فمنه قوله في مطلع مديحه لشجاع بن محمد الطائي [٢٩]:

إذا عَذَلوا فيها أجَبْتُ بِأَنَّةٍ حُبَيِّبتا قلبا فُؤَادا هَيَا جُمْلُ

صَغَّرَ حبيبته منحرفاً بذلك عن الأصل؛ لأنه كلما كانت الحبيبة أصغر كانت النفس أكثر انجذابا إليها وأعظم تعلقًا بها. والمقصود هنا – بالصغر– : صغر الجسم، وحداثة السن؛ لأنهما إذا اجتمعا كانا أدل على الإقبال الذي هو استجابة النداء، وفي التصغير إشارة إلى صدق العاطفة، عضَّدَ ذلك بأن جعل الأنين أَنَّةً واحدة من باب التكثيف والتصغير الدلالي؛ إذ تجاوز العدد إلى المضمون والمحتوى. فهذه المعاني المقصودة متناغمة مع الغرض الشعري الأول وهو الغزل في المقدمة: فكان التصغير إيجابياً في سياقه الأصغر (الغزل)، إيجابياً كذلك في سياقه الأكبر (المِدْحَة بشكلٍ عام).

ويكون توظيف التصغير سلبياً في السياق الأصغر دون الأكبر؛ إذ يعني مجيء التصغير سلبياً في الغرض الأكبر التوظيف الخاطئ بمعنى أنه يكون – عندها – متعارضًا مع غرض الشاعر. ومن أمثلة التوظيف السلبي للتصغير قوله في هجاء كافور [٣٠]:

ونام الخُوَيدِمُ عن ليلنا وقد نامَ قبلُ عمَّى لا كرى

فغَرَضُه الهجاء والذَّم، ولما أراد احتقاره جعله خادماً، ثم زاد على ذلك بتصغير اللفظ منحرفاً عن الأصل (خادم) إلى التصغير (خويدم) فزاد بهذا الاختيار الذم ذماً. ولو بقي على الأصل لكان كافياً في الهجاء، ولكنه زاد في المبنى ليضيف إلى المعنى، ولا يقف عند هذا؛ إذ يجعله أعمى وأسود جاهلاً وكركدن. ويتحدث بعد ذلك عن نفسه معظماً مفتخراً مبالغاً، فيكون التصغير بذلك سلبياً لاستعماله في موضع الهجاء (الغرض الأول) ولكنه إيجابي ومنسجم مع الغرض العام ومقصدية الشاعر في تحقير كافور وتعظيم نفسه. ومن هذا الباب مجمل هجاء أبي الطيب.

الحقول الدلالية

يأتي التصغير منسجماً مع مقصدية الشاعر وغرضه الشعري في حقول دلالية ترتبت معانيها في نفس الشاعر أولاً، ثم نقلها إلى وعاء الشِّعر لينطق بها، على أن هذه الحقول الدلالية تقع في ميدان الثنائيات التلازمية بين ما هو عظيم وصغير، ليبدو التصغير قياسياً ودلالياً مكِّثفاً المعنى، مهيمناً في الدلالة، متناغماً منسجماً في الإطار العام، ومتفاعلاً متكاملاً مع غيره في سياقه ليحقق الغرض الشعري العام فتصب كلها في النهاية لتخدم هاجس الشاعر وطموحه ومواقفه.

ويمكن في ضوء ذلك جعل الظاهرة في ثلاثة حقول دلالية عامّة وهي: الحقل الأول: ومركز ثقله التعظيم عموماً. للشاعر ولممدوحيه وتدور في فلكه أمثلة كثيرة منها قوله في مديح علي بن أحمد الخرساني [٣١]:

فتىً ألفُ جُزءٍ رَأْيُه في زَمانِه أَقل جُزَيءٍ بَعْضُه الرأي أَجْمَعُ

يقول الواحدي في شرحه: " ترتيب الكلام: فتى رأيه في زمانه ألف جزء، أقل جزيء من هذه الأجزاء الألف، بعضه، أي بعض أقل جزيء من رأيه الرأي الذي في أيدي الناس كله".[٣٢] ومنه قوله:

ثِقالٍ إذا لاقوا خفافٍ إذا دُعوا كثير إذا شُدّوا قليلٍ إذا عدوا

وقد سبقت الإشارة إليه وشرحه. ومنه قوله في تصغير ليلة [٣٣]:

أُحادٌ أم سُداسٌ في أحاد لُيَيلتنا المَنوطَةُ بالتناد

فصغَّر الليلة ليعظِّمها في كل شيء طولاً ومكانة ولما سيأتي بعدها. وهو لا يقتصر على واحد من تلك الأسباب،

وإنما أرادها مجتمعة لأنه لو أراد الطول – مثلاً – لقال كقوله في موضع آخر [٣٤]:

فيا ليلة ما كان أطول بِثُّها وسُمُّ الأفاعي عَذْبُ ما أتجرع

فلما أراد التعظيم بعامة عَدل عن التخصيص في صفة واحدة، فترك الباب مفتوحًا وفي المسألة خصومة. كما أورد المتنبي التصغير للتحبب والاستحسان في حقل المديح بعامة ومنه قوله في إحدى مقدماته:

إذا عذلوا فيها أَجَبْتُ بأنَّهُ حُبَيِّبتا قلبا فؤادا هَيَا جُمْلُ

وقد سبقت الإشارة إليه وشرحه.

ومنه قوله [٣٥]: أياماً أُحَيسنَها مُقْلَةً ولولا الملاحَةُ لم أَعْجَبِ

حُلوفيَّه في خلوفيّها سُويداء من عِنبِ الثعلبِ

فلما أراد أن يستحسن مقلة الباز، صغَّر فعل التعجب جرياً على عادة العرب في نقل التصغير من المُتَعَجّبِ منه إلى الفعل الملابس له.[٣٦] ثم استعمل التصغير مرة أخرى في قوله سويداء إشارة إلى ما في عينه من السواد، ولما كان الباز صغيراً والموقف استحساناً جاء تعبيره

منسجماً معه. وهو يوظف التصغير ضمن هذا الحقل ليتوصل به إلى مديح نفسه بصورة مختلفة ذات خصوصية واضحة نابعة من خصوصية الشاعر ونظرته إلى نفسه؛ وهي تصغيره للأنام وتقليله من شأن الناس مُعَظِّماً نفسه في كل ميدان وباب، فيقول [٣٧]:

أي مَحَلِّ أرتقي أي عَظيمٍ أتقي
وكلُّ ما قد خَلَقَ الله وما لم يخلق
محتقر في هِمّتي كشعرةٍ في مفرقي

فهمته ونفسهُ يريانه كلَّ شيء حقيراً فيقول [٣٨]:

تُحَقّرُ عندي هِمّتي كُلّ مَطْلَبٍ ويقْصُرُ في عيني المَدَى المُتَطاولُ

وبناءً على هذه المكانة الخاصَّةِ يرفض التشبيه ولا يرتضيه لنفسه في حين يرتضيه لممدوحيه فيقول [٣٩]:

أَمِط عنك تشبيهي بما وَ كأنّه فما أَحَدٌ فوقي ولا أَحَدٌ مثلي

فالمتنبي (يَتَرَفَّع عن كُلّ شيء فيه مساواة وليس فيه امتيازٌ واختصاص).[٤٠]

والحقل الدلالي الثاني يأتي في توظيف الظاهرة ضمن غرض الذم والهجاء؛ إذ تسير الظاهرة بتضافر مع علاقات السياق بتشاكل خطي (تنمية نواة الذم) لتحقيق التحقير والذم للمهجوّ. وأمثلته كثيرة ورد بعضها في

هجاء كافور وغيره.

ومنها أيضاً قوله[٤١]: وذَهْرٌ ناسُه ناسٌ صِغارٌ وإن كانت لهم جُثَثٌ ضِخامُ

وهو من التصغير الدلالي أيضًا، فقد أسند صفة الصِّغَر إلى الناس ليهجُوَهم ويُدَلِّل على وضاعَةِ قَدْرِهِم.

ومنه – أيضاً – قوله في هجاء إسحاق بن إبراهيم الأعور[٤٢] :

أترى القيادةَ في سواك تَكَسُّباً يابن الأُعَيِّر وهي فيك تَكَرُّم

فصغَّر الأعور ليزيد من ذمه له بما يتناسب مع السياق؛ إذ يجعل خَلْقه ناقصاً، ويجعله قرداً لا يكتفي بذلك بل يلجأ إلى التصغير الدلالي في القصيدة ذاتها ليؤكد احتقاره له فيقول:

وتراه أصغر ما تراه ناطقاً ويكون أكذبَ ما يكون ويقسم

وقد سبقت الإشارة إليه وبيانه. ومنه – أيضاً – قوله في هجاء كافور[٤٣]:

وفارَقْتُ مِصراً والأُسَيود عينُه حذار مسيري تَستَهِلُّ بأَدمُعِ

وهنا يبدأ المتنبي بالحديث عن نفسه وفعاله فيسند إليها (واحدًا وثلاثين ضميراً) كلها تصب في عِظَم الذات وعُلُوّها، ويهجو كافور فلا يجعله أسود بل أُسَيودَ لشدّة احتقاره له، ويزيد على ذلك بجملةٍ من الصفات الرديئة في قوله عبداً مخنثاً، وأبا النتن، وجاهلاً، ويراه عبداً منافقاً كاذباً لئيماً، مُدَّع للجود، رديءَ الفعل، ليبلغ التحقير ذروته حين ينتقل الشاعر إلى مديح سيف الدولة؛ تاركاً للمتلقي عقد المقارَنة بين كافور وسيف الدولة؛ إذ وضع الشاعر أدواتها ونتيجتَها فإذا به يريد أن يقول – إن صح لنا ذلك – والضد يظهر سوءه الضد. على أن كافور كان رجلاً صالحاً ينفق في سبيل الله متصوفاً، وكانت أيامه سديدة جميلة، على غير ما جاء في شعر المتنبي [٤٤]. ومن هذا المضمار قوله في هجاء كافور[٤٥]:

نُوَيبيَّة لَمْ تَدْرِ أَنَّ بُنَيَّها الـ نُوَيبيَّ بَعْدَ اللهِ يُعْبَدُ في مصرا

وقد رَوَى العقاد هذا البيت على النحو السابق[٤٦] ، ورواه البديعِيُّ بصورة أخرى هي[٤٧]:

لُوَيبيَّة لَمْ تَدْرِ أَنَّ بُنَيَّها الـ لُوَيبيَّ بَعْدَ اللهِ يُعْبَدُ في مصرا

واللويبية: لوبية منسوبة إلى اللوبة الأرض البركانية السوداء. ولعل مذهب البديعي في هذا أصوب؛ لأن المتنبي أشار إلى الصفة ذاتها في موضع آخر من ديوانه بقوله[٤٨]:

كأنَّ الأَسوَد اللابيَّ فيهِم غُرابٌ حوله رَخمٌ وَبُوم

وهو لا يكتفي بالإشارة إلى اللوبية بل يصغرها إمعاناً في الهجاء والذم. ويزيد على ذلك بأن جعله – أي كافور

– بنيًّا لا ابناً، وفي القصيدة هجاءٌ كبيرٌ لكافور؛ إذ يجعله أعجوبة وخنزيراً ونكرة وشر الناس، ثم يضيف إلى ذلك بقوله [٤٩]:

لعَمْرُك ما دَهرٌ بِه أنتَ طَيِّب أيَحْسَبُني ذا الدَّهرُ أحسبه دَهرا

فبلغ بهذا هجاءً كبيراً؛ فهو يحتقر الدهر وينكره لأنه يَضُمّ كافور حَيّاً.

ومنه قوله يهجو قوماً توعدوه [٥٠]:

وُلَيد أُبيِّ الطيب الكلب ما لَكُم فَطِنتُم إلى الدعوَى وما لَكُم عَقْلُ

قال العكبري في شرحه (وُلَيد تصغير ولد) [٥١]، وجاء في ديوانٍ آخر (أُبَيّ تصغير أب)[٥٢] ولعل القول بتصغير أب في أبي صواب. فلما أراد أن يحقرهم وآباءهم قال: أولاد محتقرون لآباء محتقرين، فعدل عن هذا قائلاً: وُلَيد لآباء محتقرين، ثم فعل بآباء كسابقتها فصارت: على النحو الذي وصلنا: وُلَيد أُبَيّ ....

فصار التصغير للتعريض بأمرين هما: قلة العدد، وصغر السن، أما قلة العدد فمن أجل تجريدهم من القوة. وأما صغر السن فمن أجل تجريدهم من حصافة الرأي.. فجمع بين التصغيرين لِيُهَوِّن من شأن هؤلاء ويجعل الهوان أمراً لاصقاً بهم من جميع الجهات، إذ يتابع تحقيرهم في القصيدة نفسها فيجعلهم أولاد كلب، ليس لهم عقل، وهم كالموتى لجهلهم، وليس لهم وزن ولا قدر حتى جرهم النمل استخفافاً بهم.

والحقل الدلالي الثالث يأتي فيما كان من قرن التصغير بالمديح؛ إذ يصغر أعداء الممدوح ويُحَقِّرُ من شأنهم ليخرج من ذلك بالرفعة لممدوحه، فيبين أنهم شَرُّ الناس ذوو أخلاق سيئة؛ لِيُقَدِّم بذلك شيئاً من المقارنة الضمنية بين الممدوح وأعدائه، وكأنه يقول: هؤلاء الأشخاص أشرار ومَنْ أمدحه عَدُوُّهم وخصاله على النقيض من خصالهم، إذن فهو خَيِّر خُلُقه حميد، وهذا مذهبه ظاهر في قوله:

ونُديمهم وبهم عَرَفنا فضلَهُ وبِضِدِّها تُتَبَيَّنُ الأشياءُ [٥٣]

ففي تحقير الأعداء مدح آخر للممدوح وإعلاء من شأنه، وفي هذا المجال شعر كثير له، ومنه قوله في هجاء أعداء عضد الدولة ومديحه [٥٤]:

وكانا ابنا عَدُوٍّ كاثَراه لَهُ ياءَي حُروفِ أُنيسيان

فالقصيدة حافلة بمعاني التعظيم والمديح لعضد الدولة وولديه، ثم تحقير أعدائه حتى يبلغ ذلك التحقير ذروته في التوظيف الشعري لكلمة أنيسيان، وفيها انحراف عن الأصل، إذ كان اللفظ على أصل الوضع.

(١) إنسان فأراد تصغيره فقال : (٢) أنيسان ثم عدل عن هذا وقال: (٣) أنيسيان واستقر على ذلك، وعند ابن جني أنه شاذ فيه خلاف [٥٥]، فانحرف الشاعر عن المستوى الأول والثاني واختار الثالث لما يؤديه من معنى، فأولاد المهجوّ اثنان، وقد راعى ذلك في اختياره فعدد

حروف إنسان (١) = ٥، وعدد حروف أنيسان (٢) = ٦، وعدد حروف أنيسيان (٣) = ٧، وهو أراد في المعنى الشعري أن يجعل زيادة ولدي عدوه كزيادة الحرفين في كلمة إنسان دالاً على التحقير، وفي هذا تقابل كميّ، فكل منهما تُؤدي زيادة عددية دون فائدة قيمية. والمتنبي في هذا لا يترك نقيصة إلا ويلحقها بالمهجو مانحاً المكرمات لممدوحيه ولعله مذهبه في قوله: " بجبهة العير يفدى حافر الفرس " [٥٦]

ومن ذلك قوله [٥٧]:

أرادت كلابٌ أن تقومَ بدولةٍ لِمَن تركت رعي الشُّويهاتِ والإبلِ

فَصَغَّر الشويهات إمعاناً في احتقارهم، وتأكيداً على هبوط منزلتهم، إذ هو مضطر لاستخدام صيغة الجمع؛ لأنه يتحدث عن قبيلة فيلزم أن تمتلك شياهاً لا شاةً واحدة، ولما اِضطُرَّ للجمع قال: لِمن تركت رعي الشياه القليلة والإبل، فعدل عن ذلك إلى تصغير الشياه فقال: لمن تركت رعي الشويهات؛ إذ لو تركها شياهاً على أصلها لجعلهم يمتلكون شيئاً مما تقوم به الدول وهو المال، والمال قد يستدعي، وإن ضمناً خصائل أخرى كالكرم مثلاً، ولكنه أراد تجريدهم من السيادة وتحقيرهم، فخرج من ذلك بقلة شياههم وعَرّض ضمناً لقلة إبلهم، إذ البدهي، أن من لا يملك إلا قليلاً من الشياه – فقراً – لا يملك إلا أقل منها إبلاً، فلم يحتج بذلك إلى تصغير الإبل، ومما يؤكد ذلك جعله، في البيت التالي، الضِّباب لا تأمن على نفسها من الأكل، فلو كان لديهم شياه كافية لما أكلوا ضباباً، وهذا يتضافر مع علاقات السياق؛ إذ يمعن في تحقيرهم ونسب صور الذل لهم، وفي مقابل ذلك يرفع من شأن ممدوحه (لشكروز)؛ إذ هو جوادٌ كريم السجايا، سباق بالقولِ والفعْلِ، عفيف وشجاع، ريّان، عظيم القدر، مؤمن، طيِّب الأصل. ومنه قوله في مديح سيف الدولة والاعتذار إليه [٥٨]:

ظَلَلْتُ بين أُصَيحابي أُكَفْكِفُه وظَلّ يَسْفَحُ بين العُذْر والعَذَلِ

قال العكبري في أُصيحابي (تصغير عظمة)[٥٩]، – ولعله تصغير تَحَبُّبٍ وتَقَرُّب لبيان فزعه إلى أصحابه وخلانه المقربين – ويظهر من علاقات الجوار الرأسية لهذه القصيدة التي يعتذر بها المتنبي إلى سيف الدولة أن هذا تصغير تحقير لا تعظيم؛ إذ لم يفخر الشاعر بنفسه على طول القصيدة الواقعة في (ثمانية وأربعين بيتاً) ولما لم يفعل ذلك إلا مرة واحدة حين تعرض لتعلمه المنازلة من الممدوح، كان من المستبعد أن يعظم أصحابه في البيت الثاني، بل لعله صغرهم

ليجعل كل الناس وإن كانوا منه بمنزلة الصحبة صغاراً لا يحلون منزلة سيف الدولة، وهذا أولى في هذا المقام. ومن جانب آخر الشاعر يكفكف دمعه ولا يبكي الرجل إلا بين يدي المقربين جدًا ولعله صغّر أصحابه للتحبب أو ليدل على أنه بكى أمام من هم أكثر التصاقًا به. ومنه – أيضاً – قوله في مديح أبي شجاع فاتك [٦٠]:

لا يَحْرِمُ البُعْدُ أهلَ البُعدِ نائِلَهُ وغَيْرُ عاجِزَة عنه الأُطَيفالُ

قال العكبري في شرحه: " والأطيفال: جمع طفل، وهم صغار الصبيان ...، وقد أراد عموم بر الممدوح وأن البعيد والقريب فيه سواء،والطفل الذي لا يقدر على النهوض والتعريض لمعروفه فهو يَعُمُّ القريب والبعيد. " [٦١] وقد جاءت هذه اللفظة في سياقها لتشاكل ألفاظاً وتراكيب ساهمت معاً في تشكيل حقل دلالي حافل بالمديح والتعظيم للممدوح، ولعل صيغ المبالغة المبثوثة في القصيدة تؤكد الثناء الكبير للممدوح، والذم الشديد لأعدائه، وهذه الصيغ هي: (بُخّال، هَطّال، جُهّال، فَطِن، فُعّال، سَئال، كسوب، عَذّال، ضُلاّل، عُقّال، فيضال، بَذّال، قَتّال) وغيرها من الرموز التي تصب في الغرض الشعري.

ولا يقتصر استخدامه للتصغير ضمن هذا الحقل على مديح غيره؛ إذ يستخدمه ليمدح نفسه ويقع في هذا الباب قوله [٦٢]:

يستعظمون أُبَيّاتاً نأمت بها لا تحسُدُنَّ على أن ينأَم الأسدا

ليس من عادة المتنبي أن يهوّن من أمر شيء من شعره، لكنه فعلها هنا فصغَّر الأبيات؛ ليقول إن تلك الأشعار على صِغَر شأنها في عينه عظيمة في نظرهم. فهذه الأبيات من شعره بمنزلة النوم من فعال الأسد، وتلك الأبيات على ما فيها من فخر وجزالة واعتداد بالنفس واستعلاء على الأنام ليست عظيمة عنده. وهذا يدور في فلك الثنائيات التلازمية التي ما انفكت تلازمه: العِظَم والصِّغَر. ويقع على الخط ذاته قوله [٦٣]:

أفي كُلِّ يومٍ تحت ضِبي شُوَيعر ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاول

أراد المتنبي أن يحرز لنفسه السبق والتفوق في ميدان الشعر بين الشعراء، لمّا أحرزهما لسيف الدولة بين الملوك في القتال والكرم فصغّر – دلالياً – ما كان من الملوك قياساً بما هو من سيف الدولة يتجلى في أنه جعل:

سيف الدولة بحر والملوك جداول

طلّه وابل ووابل الملوك طَلّ

فما كان من سيف الدولة عظيمٌ وإن قل، وما كان من سواه قليل وإن كَثُر، فلما أثبت لممدوحه ذلك، أراد أن يثبت لنفسه الانفراد بالشاعرية التامة؛ إذ كل من سواه شويعر صغير بل زاد على الصغر بأن جعل ذلك الشويعر ضعيفاً قصيراً، وهذه الألفاظ الثلاثة (شويعر، ضعيف، قصير) كلها مُحَقِّرة مهينة فلما نَسَبَ لهم ذلك فكأنه أراد للمتلقي أن يقوم بدوره في استكمال الناقص فيعرف حين ذاك أن أبا الطيب (شاعر، قوي، طويل) وهذا يسهم بفاعلية في تكوين حقل دلالي ناطق بهواجس الشاعر.

تكرار الظاهرة

أما تكرار المتنبي للظاهرة فواضح مما تمَّ وسيتم عرضه، وهو تكرار متباين؛ إذ يلجأ الشاعر إلى تكرار اللفظ نفسه في مواضع متعددة ومنه تكرار اللفظ المصغر (قُبَيل) في ثلاثة مواضع كلها ضمن حقل دلالي واحد وهو التعظيم بعامة. وقد ورد في مقدمة مديحه لمحمد بن عبد الله العلوي بقوله [٦٤]:

يا حادِيَي عيرَها وأحَسبُني أوجَدُ ميتاً قُبَيل أفقدُها

إذ يرد البيت في مقدمة القصيدة التي تتحدث عن البعد والنأي وتدور في فلك العلاقات الزمانية تنظمها مجموعة من الألفاظ والتراكيب مثل (أبعد، ظلت بها تنطوي، قبيل، قفا قليلاً) فجاءت لفظة قُبيل مناسبة للفكرة التي يطرحها، وهي عدم احتمال البعد والفراق واقترابهما. ويُكَررّها في رثاء جدته قائلاً [٦٥]:

وكُنْت قُبَيل الموت أستعظم النَّوَى فقد صارت الصُّغرَى التي كانت العُظمَى

فقد ناسب تصغير (قَبْل) في هذا البيت علاقات المجاورة في تراكيبه؛ إذ يقابل بين موقفين: أحدهما عظيم والآخر صغير. فلما كان الموت عظيماً كان ما قبله صغيراً محتقراً فناسب ذلك تصغير قبل، ولعله أراد تصغير عموم الحياة الدنيا في مقابل الآخرة. ويكررها في رثاء والدة سيف الدولة قائلاً [٦٦]:

وأَفْجَعُ من فَقَدْنا من وَجَدْنا قُبَيل الفَقْدِ مفقوُدَ المِثالِ

إذ يأتي استعمال (قُبَيل) بعد أكثر من ثلاثين بيتاً تتحدث عن الموت والحياة وصروف الليالي وتعظيم المرثية، ليجعلها مفقودة النظير والمثال على امتداد الزمان، فيقول عنها في بيت سابق :

وليست كالإناث ولا اللواتي تُعَدُّ لها القبورُ من الحِجال

ولعله لم يقصد إلى مجرد تقريب الزمان بتصغير (قبل)، إنما أراد التعظيم والتفرد؛ لأنه استخدم قبل على أصل وضعها في القصيدة نفسها؛ ليؤدي ذلك بقوله [٦٧]:

على المدفون قَبْلَ التُّربِ صونا وقَبلَ اللَّحدِ في كَرَم الخلال

فأراد لها أن تكون نفيسة حيثما كانت وعظيمة في مطلق الظروف والصفات، ومن تكراره للفظ المصغر استخدامه اسمَ الإشارة (ذا) مصغراً مرتين، الأولى في قوله في مديح محمد بن زريق الطرسوسي [٦٨]:

قَطَّعت ذَيّاك الخُمارُ بِسَكرَةٍ وأدرت مِن خَمْرِ الفِراق كؤوسا

أراد أن يُفْصِح عن الفارق بين وجودها وتَمَنُّعِها من جانب، ورحيلها إلى غير مكان من جانب آخر. فهو لا يستصغر تَمَنُّعَها ولكنه لمّا قاسه برحيلها وجده أخف وأهون فصغَّره.والثانية في مقدمة مديحه لأبي أحمد عبيد الله بقوله [٦٩]: أذا الغُصنُ أم ذا الدِّعص أم أنتِ فِتنةٌ

وذيّا اللذي قبَّلتُه البَرْقُ أم ثَغْرُ

فصغر الثغر لأنه مِمّا يستحسن في الصغر [٧٠].

إلا أن هذا التكرار للفظ لا يكرر المعنى بما يوقع في الرتابة؛ إذ لكل لفظ في مكانه داعٍ ووظيفة يؤديها في سياقه، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا التكرار لا يقع على مستوى القصيدة، وإنما على مستوى النتاج الشعري العام للشاعر (ديوانه بأكمله). ومنه أيضاً تصغير أهل وقد سبقت الإشارة إليه.

ويلجأ الشاعر إلى تكرار من نوع آخر وهو تكرار المعنى دون اللفظ وهو كثير، منه استخدام التصغير في أكثر من موضع في هجاء كافور، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في الألفاظ والتراكيب. ومنه أيضاً هجاء ابن كيغلغ وسبقت الإشارة إليه. ومن هذا تكراره بل إلحاحه على تعظيم نفسه وتصغير الآخرين صراحة وضمناً وسبقت الإشارة إليه.

المستوى الصوتي

وقد جاءت هذه الظاهرة مرتبطة بالوزن العروضي؛ إذ كل لفظة مصغرة ضرورة لإقامة الوزن الشعري في مكانها، مما يجعلها، أي الظاهرة بعامة، ضرورة غير قابلة للحذف أو الاستبدال، ولما كان حضورها مرتبطاً بالعروض فهو مرتبط – بدهياً – بشعرية العمل؛ إذ الشعر كلام موزون مقفى، أي هي مرتبطة بالعمل الإبداعي كونه شعراً لا تنفصم عراها عنه بأية حال. والشاعر قاصد إلى ذلك لا يقنع بهذا، بل هو في اختياره يراعي المستوى الصوتي الأول في كل تركيب؛ فاختياره لظاهرة التصغير اتجاه إلى الوضوح لما هو معروف من زيادة الياء على الأسماء عند تصغيرها والياء حرف واضح سمعياً لكن هذا الوضوح لا يتعارض مع الحقل الدلالي العام، فتأتي الحروف الباقية مهموسة وكأنه أراد للتصغير أن يمتد إلى "الفونيم" أيضاً.. ففي هجائه لكافور استخدم ألفاظاً كثيرة تمثل ما سبق: فكويفير مكونة من ستة فونيمات، أربعة منها واضحة سمعياً وهي (و، ي، ي، ر) أما (ك، ف) فهما مهموسان. ومثله أحيمق،مكونة من خمسة فونيمات، اثنان منها واضحان سمعياً وهما (ي، م) أما (ح،ق) فهما مهموسان.

وليس هذا في هجاء كافور حسب، بل يمتد إلى باقي الألفاظ المصغرة مثل: شويهات وتقع في ستة فونيمات اثنان منها واضحان سمعياً وهما (و، ي) أما (ش، هـ، ت) فهي مهموسة. فامتد التصغير ليشمل الجانب الصوتي ويقع الاختيار على الحروف الأقل مرتبة سمعياً (الهمس مقابل الجهر).

وقد تكون الفونيمات في مجملها واضحة سمعياً لتكسب اللفظة المصغرة هيمنة صوتية بالإضافة إلى الهيمنة الدلالية مثل الأُعَيِّر، إذ تقع كل الفونيمات في الوضوح السمعي (ع، ي، ي، ر). وقد تأتي بعض فونيمات الألفاظ المصغرة – لغرض الهجاء – مجهورة إذا كان السياق متعدداً في التصغير كقوله: نويبةٌ ولويبي فهي تقع في ستة فونيمات خمسة منها واضحة سمعياً هي (ل، و، ي، ي، ي) أما (الباء) فمجهورة. وفي البيت نفسه بُنَيّ تقع في أربعة فونيمات ثلاثة منها واضحة سمعياً وهي (ن، ي،ي) و(الباء) مجهورة. ولعله يلجأ إلى فونيم مجهور أو أكثر لغرض التنبيه لما يكون من تعدد التصغير. ومنه قوله وُليد فهي أربعة فونيمات ثلاثة منها واضحة سمعياً وهي (و،ل،ي) والدال مجهورة. وعندما يكون الغرض خارجاً عن التحقير فإنه يلجأ إلى الفونيمات المجهورة كقوله: حبيبا وتقع في سبعة فونيمات اثنان منها واضحان سمعياً وهما (ي،ي) أما (ح،ت) فمهموسان، و(ب،ب) فمجهوران. ومثلها سُويداء، سُوَيد تقع في أربعة فونيمات اثنان

منها واضحان سمعياً، (و،ي) أما (س) فمهموسة، وأما (د) فمجهورة. على أن الظاهرة لم تفرض بحراً شعرياً واحداً يلتزم به الشاعر، بل نراها منتظمة في بحور شعرية مختلفة في الطويل، والبسيط، والوافر، والرجز، وغيرها.

دراسة تطبيقية

حتى يتضح المنهج فيما سبق نختار قصيدة وُظِّفت فيها الظاهرة، واضحة الدلالة على ما تمت الإشارة إليه من الثنائيات التلازمية والحقول الدلالية. على أن هذا التناول لا يأتي مفصلاً لمعاني القصيدة لذاتها، إنما هو استجلاء لما تعتني به الدراسة من أمور تمت الإشارة إليها. وهذه القصيدة مطلعها:

طوالُ قنا تطاعنها قِصار وقطرُك في نَدىً ووغىً بِحارُ

ومنها يقول الشاعر:

فأرْهِقَت العذارى مُردِفات وأوطِئَت الأُصيبَةِ الصغارُ

فصغر الصبية وأتبعها بلفظ الصغار، فكأنه صغرها مرتين فقال أولاً (الصبية الصغار) ثم عَدَل عنه ليقول (الأصيبية) ثم أتبعها بلفظ الصغار ليقولَ (الأصيبية الصغار)؛ إذ أراد أن يؤكد صغرهم ليعمق مشهد الهرب المُذِلّ؛ إذ وطئت الخيول الأصيبية الصغار لشدة ذعرهم وخوفهم وللدلالة على عموم المباغتة في الهجوم.

وهذا يتواصل مع المعاني في سياق المدحة؛ إذ جعله (أي الممدوح) يحتقر أعداءه صراحة في قوله:

وفيك إذا جنى الجاني أناةٌ تُظَنُّ كرامة وهي احتقارُ

ثم بعد ذلك يجعل أعداء الممدوح – سيف الدولة – فيما مضى، أسوداً؛ ليزيد من قَدْرِهِ وعِظَمِهِ، إذ أصبحوا أسوداً لا قبل لها بطائر.

والقصيدة بأكملها قائمة على الثنائية التلازمية؛ فهناك ما هو أعلى وأرفع يقترن بذكر الأمير الحمداني، وهناك ما هو دون أقل مقترن بأعدائه وحالهم والفارق بين المنزلتين يصب في مديح سيف الدولة. وهذه الثنائيات عديدة:

(طول ، قصار)، (كرامة ، احتقار)، (حواضر ، بوادي)، (الوحش ، الأنس)، (عز ، ذل)، (النهار ، الليل)، (قُدام ، خلف)، (تفرقهم ، يجمعهم)، (الصبح، الليل)، (مستقر، ليس له قرار)، (أبرّ ، أعق)، (الأرباب ، العبدان)، (سطوة، ذلة) ليس هذا حسب، بل إنه يُلْصق الصغر بأعداء سيف الدولة من خلال الألفاظ المُصَرِّحة بالمعاني المذلة والمهينة وهي: (احتقار، الصغار، اختصار، ذل، الأصيبية، الصغار). ولعلنا لا نجانب الصواب إن قلنا إنه استخدم الأماكن التي جاءت على أوزان التصغير ليجعل الأعداء وما يتصل بهم صغيراً، وهذه الأماكن (الغُوير، غوير، البُييضة، نُمير). فالألفاظ تتناوب والتراكيب تتفاعل لتتداعى الدلالات صراحة وضمناً لتؤكد على عظم الممدوح وما يتصل به، وصغر الأعداء وما يتصل بهم، فكأنه يقول: العظمة تلازم العظيم أنّى ذهب، والحقارة والصغر يلازمان الصغير كيفما اتجه.

- والقصيدة كاملة ملحقة بهذه الأوراق (مستلة من ديوان المتنبي لعبود الخزرجي).

طِوال قَنَا تُطاعنْها قِصار ... وقطرِكَ في ندّى ووغى بحارُ

وفيكَ إذا جَنَى الجاني أناةٌ ... تُظنُّ كرامةٌ وهي احتقارُ

وأخْذٌ للْحواضِر والبَوادِيُ ... بضبطٍ لَمْ تعوَّدهُ نزارُ

تَشَتَمُهُ شمِيمَ الوَحْشِ إِنْسًا ... وتَنْكِرُه فيعروها نِفار

وما انْقادتْ لغَيْرِكَ في زمانٍ ... فَتَدْري ما المقادة والصّغَارُ

فَقَرَّحَتِ المقاوِدْ ذِفْرَيْها ... وصَعَّرَ خَدَّها هذا العِذارُ

وأطمَعَ عامِرَ البقْيا عَلَيهِمْ ... ونزَقَها احْتمالك والوَقارُ

وغيَّرها التَراسُلُ والتّشاكي ... وأعْجبَهَا التَّلَبُّبُ والمغارُ

جيادٌ تعْجز الأرْسانْ عنْها ... وفرْسانٌ تضِيقْ بها الدِّيارُ

وكانتْ بالتَّوقُّفِ عنْ رَدَاها ... نُفُوسًا في رَدَاها تُسْتَشَارُ

وكنتُ السَّيْفَ قائمُهُ إليْهِم ... وفي الأعداءِ حَدُّكَ والغِرارُ

فأمسَتْ بالبُدَيّة شَفرتاه ... وأمسى خلف قائمِهِ الحيار

وكان بنو كلابٍ حيْثُ كعْبٍ ... فخافوا أن يصيرُوا حيْث صاروا

تَلَقَوْا عِزَّ مَوْلاهُـمْ بِذُلَّ ... وسار إلى بني كَعْبٍ وسارُوْا
فأَقْبَلَها المُرُوجَ مُسَوَّمَاتٍ ... ضوامِرَ لا هِزالَ ولا شيارُ
تُثيرُ على سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرًا ... تناكرُ تحْتهُ لَوْلا الشّعارُ
عجَاجًا تعْثُرُ العُقْبانُ فيـه ... كأنَّ الجوَّ وعْثٌ أوْ خَبَـارُ
وَظَلَّ الطَّعْنُ في الخيْلَيْنِ خَلْسًا ... كأَنَّ الموْتَ بينَهُمـا اخْتِصارُ
فلَزَّهُمُ الطّرادُ إلى قِتـالٍ ... أَحَدُّ سِلاحِهِمْ فيـهِ الفِرارُ
مَضَوْا مُتسابِقيْ الأعْضَاءَ فيـهِ ... لأَرْؤُسِهِـمْ بِأَرْجُلِهِـمْ عِثَارُ
يَشُلُّهُمُ بِكُلِّ أَقَبَّ نَهْـدٍ ... لِفارِسِهِ على الخَيْـلِ الخِيَارُ
وَكُلَّ أَصَمَّ يَعْسِـلُ جَانِبـاهُ ... على الكَعْبَيْـنِ مِنْهُ دَمٌ مُمَارُ
يُغادِرُ كُلَّ مُلْتَفِتٍ إلَيْـهِ ... ولَبَّتُـهُ لِثَعْلَبِـهِ وِجَارُ
إذَا صَرَفَ النَّهارُ لاضَّوْءَ عَنْهم ... دَجَا لَيْلانِ: لَيْـلٌ والغُبَارُ
وإنْ جُنْحُ الظَّلامِ انْجابَ عنْهُمْ ... أضَاءَ المَشْرَفِيَّـةُ والنَّهارُ
يُبَكِّيْ خَلْفَهُـم دَثْرٌ بُكاهُ ... رُغَـاءٌ أو ثُؤَاجٌ أوْ يُعارُ
غَطَا بالْغَنْثَرِ البيْداءَ حَتّى ... تَحَيَّرَتِ المَتاليْ والْعِشَـارُ
وَمَرُّوا بالجِباةِ يَضُـمُّ فيْها ... كِلا الجَيْشَيْـنِ منْ نَقْعٍ إزَارُ
وجَاءوا الصَّحْصحَانَ بلا سُرُوجٍ ... وقَدْ سَقَطَ العِمَامَـةُ والخِمارُ
فَأَرْهِقَتِ العذَارَى مُرْدَفَاتٍ ... وأُوْطِئَتِ الأصَيبيـة الصِّغارُ
وقَدْ نزِحَ الغُويْرُ فلاَ غُوَيْرٌ ... ونهيا والبُيَيْضَةُ والجِفارُ
وَلَيسَ بغَيْرِ تَدْمُرَ مُسْتَغاثٌ ... وَتَدْمُر كاسْمِها لهُـمْ دَمَارُ
أَرادُوا أنْ يُديروا الرَّأي فِيها ... فَصَبَّحَهُـمْ برأْيٍ لا يُدارُ
وَجَيْشٍ كُلّما حَاروا بِأَرْضٍ ... وأقْبَلَ أَقْبَلَتْ فِيهِ تَحـارُ
يَحُفُّ أَغَرَّ لا قَوَدٌ عَلَيـهِ ... ولا دِيةٌ تُساقُ ولا اعْتِذَارُ

تُريقُ سُيُوفُهُ مُهَجَ الأعادِيْ وَكُلُّ دَمٍ أرَاقَتْهُ جبَـارُ

وكانوا الأُسْدُ لَيْسَ لها مَصَالٌ علَى طَيْرٍ وَلَيْسَ لها مَطَارُ

إذا فَاتوا الرِّمَاحَ تَنَاوَلَتْهُـم بأَرْمَاحٍ مِنَ العَطَشِ القِفارُ

يَرَوْنَ الموْتَ قُدَّامًا وخَلْفًـا فيخْتارُونَ والمَوْتُ اضْطرارُ

إذا سَلَكَ السَّمَاوَةَ غيرُ هَادٍ فَقَتْلاهُمْ لِعيْنيهِ مَنَارُ

وَلَوْ لَمْ تُبْقِ لمْ تَعِشِ البَقايَا وَفي الْماضيْ لِمَنْ بَقِيَ اعْتِبارُ

إذا لَمْ يُرْعَ سَيِّدهُمْ عَلَيهِـم فمَنْ يُرعيْ عليْهِمْ أوْ يَغارُ

تُفرِّقُهُمْ وإيَّاهُ السَّجَايـا ويجْمَعُهـمْ وإيَّاهُ النِّجَارُ

ومَالَ بِها علَى أَرَكٍ وَعُرْضٍ وأَهْـلُ الرَّقَّتَيْنِ لها مَزَارُ

وأَجْفَلَ بالفُراتِ بنو نُميـرٍ وَزَأْرُهُمُ الَّذي زرُوا خُوارُ

فهمْ حِزْقٌ على الخابُورِ صَرْعى بهم مِنْ شُرْبِ غيرهمُ خُمَارُ

فلمْ يَسْوَحْ لهُمْ في الصُّبْحِ مالٌ ولمْ تُوقَـدْ لهُمْ باللَّيْلِ نارُ

حِذارَ فَتًى إذا لم يَرْضَ عنْهُمْ فَلَيسَ بِنافعٍ لَهُـمْ الحِذارُ

تَبيتُ وفودُهُمْ تَسْري إليْـهِ وَجَدْواهُ الذي سألوا اغْتِفارُ

فَخَلَّفَهم بِرَدِّ البيضِ عنْهُـمْ وهَامُهُم لهُ معَهُمْ مُعارُ

وَهُمْ مِمَّنْ أَذَّمَ لهُـمْ عَلَيْهِ كريمُ العِرْقِ والحَسَب النُّضَارُ

وَأَضْحى بالعَواصِمِ مُسْتَقرًّا وليْسَ لِبَحْرِ نائِلِـهِ قَرارُ

وأَصْبَحَ ذِكْرُهُ في كـلِّ أرضٍ تُدَارُ على الغِناءِ بِهِ العُقّارُ

تَخِرُّ لهُ القَبائـلُ ساجِـداتٍ وتحْمَدَهُ الأَسِنّةُ والشِّفَـارُ

كأنَّ شُعاعَ غَيْنِ الشَّمْسِ فِيـه فَفي أبْصارِنَا عنْهُ انْكِسـارُ

فَمَنْ طَلَبَ الطِّعانَ فَذا عَلـيٌّ وخَيْلُ اللهِ والأَسَـلُ الحِرَارُ

يَرَاهُ النَّاسُ حيْثُ رأَتْهُ كَعْبٌ بأَرْضٍ ما لنازلها استِتارُ

يُوَسِّطُهُ المفاوِزَ كلَّ يَوْمٍ ... طلابُ الطَّالبيْنَ لا الانتِظارُ

تَصَاهَلُ خيْلُهُ مُتجاوِباتٍ ... وما مِنْ عادةِ الخَيْلِ السِّرارُ

بَنُو كَعْبٍ وما أَثَّرْتَ فِيهِمْ ... يدٌ لمْ يُدْمِها إلاَّ السِّوارُ

بِهَا مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ ونَقْصٌ ... وفيها من جلالَتِهِ افْتِخارُ

لهُمْ حَقٌّ بشرْكِكَ في نِزارٍ ... وأَدْنَى الشِّرْكِ في أصْلٍ جِوارُ

لَعَلَّ بنيهِمُ لبَنيكَ جُنْدٌ ... فأَوَّلُ قُرَّحِ الخَيْلِ المِهارُ

وأنْتَ أَبَرُّ مَنْ لَوْ عُقَّ أَفْنى ... وأعْفَى مَنْ عُقوبَتُهُ البَوارُ

وأقْدرُ مَنْ يُهيِّجُهُ انْتصارُ ... وأحْلَمُ مَنْ يُحَلّمُهُ اقْتدارُ

وما في سَطْوَةِ الأرْبابَ عَيْبٌ ... ولا في ذِلّةِ العبْدانِ عَارُ

هوامش البحث:

١. انظر: أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق وشرح د. عائشة عبد الرحمن، ط٥، دار المعارف، مصر.

٢. انظر: د. عائشة عبد الرحمن، الغفران لأبي العلاء المعري دراسة نقدية، ط٣، دار المعارف، مصر، ص ١٦٩-١٧١.

٣. ابن القارح: رسالة الغفران ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح، (تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن، ط٥، دار المعارف، مصر، ص٢٨.

٤. انظر: يوسف البديعي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا وزملاؤه، ط٣، ص٣٩٠.

٥. انظر: العقاد، مطالعات في الكتب والحياة. ص ٢٩.

٦. انظر: حسن الشاعر، "التصغير في شعر المتنبي"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، (٢٣-٢٤ العدد المزدوج)، ١٩٨٤.

٧. انظر: محمد فتوح أحمد، شعر المتنبي قراءة أخرى، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨، ص٤١–٤٣.

٨. انظر: إبراهيم عوض، لغة المتنبي دراسة تحليلية، مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٨٧، ص٢٣٩–٢٤٧.

٩. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه، تحقيق: محمد محي الدين، دار الجيل، بيروت، ج١، ص١٢٣.

١٠. انظر: شارلي بالي، علم الأسلوب وعلم اللغة العام، في: شكري عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم، ١٩٨٥، ص٢٥.

١١. رقم البيت/ الصفحة/ الجزء/ وفقاً للديوان المشار إليه في الهامش وهنا العكبري.

١٢. العكبري، التبيان في شرح الديوان، تحقيق: د. كمال طالب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٧، ص ٣٦٨ ج١/ ٧، ١٣٤، ٢١٠، ٢٩٣، ٢٩٧ ج٢/ ٢٨٦ ج٣/ ٥٥، ٧٠، ١٩٧، ٢٠١ ج٤.

١٣. العكبري: ٢٠٨ ج٢/ ١٣٤ ج٣ / ٢٧٧ ج٤.

١٤. العكبري: ٥٦، ١١٦، ١٧٣ ج٤.

١٥. العكبري: ١٩ ج١ / ١٤ ج٣ / ٣ ج٤ / ٣٤ ج٤ .

١٦. العكبري: ١٧ ج١ / ٥، ٨ ج٢ / ١٤ ج٤ .

١٧. العكبري: ٨ ج١ / ٨، ٣٠ ج٢.

١٨. العكبري: ٥، ٦، ١٧، ١٨ ج١ / ٢، ٢٠٦ ج٤.

١٩. العكبري: ٦/ ٣٧٨/ ج١.

٢٠. نفسه: ٤٠ / ٣٧٥/ ج٣.

٢١. نفسه: ٣٨/ ٢٧٥/ ج٣.

٢٢. نفسه: ٧ / ١٥٣ / ج٤.

٢٣. نفسه: ١٢ / ٣٤٢ / ج٢.

٢٤. العكبري: ٢٩ / ٤٥ / ج٢ .

٢٥. العكبري: ص ٤٥.

٢٦. نفسه، ٢٤ / ١٣١ / ج٤.

٢٧. السابق، ٢ / ٣٧٧ / ج٣.

٢٨. السابق، ص ٣٧٧.

٢٩. السابق، ٦ / ١٩٢ / ج٣.

٣٠. العكبري، ٢٥ / ٥٤ / ج١ .

٣١. الواحدي، شرح ديوان المتنبي، ضبطه وشرحه، ياسين الأيوبي، وقصي الحسيني، دار الرائد العربي، بيروت، ١٥/٢٠٠/ج١.

٣٢. السابق، ص ٢٠٠.

٣٣. العكبري، ١ / ٣٥٦ / ج١ .

٣٤. الواحدي، ص ١٩٦ – ١٩٧ ، ج١، وانظر في شيء منه: القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٤٥٨ – ٤٥٩.

٣٥. العكبري، ١-٢ / ١٥٧ / ج١.

٣٦. انظر فيه: جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج١، ص ١٦٨ – ١٦٩.

٣٧. العكبري، ص ٣٤٧ – ٣٤٨ / ج٢.

٣٨. الواحدي، ص ٣١٢ / ج ١.

٣٩. الواحدي، ص ١٣٦ / ج١ .

٤٠. العقاد، اللغة الشاعرة، ص ٨٢.

٤١. العكبري، ٢ / ٧١ / ج٤.

٤٢. العكبري، ١٣٢/٢٨/ج٤

٤٣. ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، دار صادر، بيروت، مجلد ١، ص٣٥.

٤٤. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ترجمة ٥٤٥، ص ٩٩–١٠٥

٤٥. الواحدي، ٢١٥١/١٧/ ج٤

٤٦. العقاد، مطالعات في الكتب والحياة، ص ١١١.

٤٧. البديعي، الصبح المتنبي، ص ١٠٥.

٤٨. العكبري، ٢٧٧/٢/ج

٤٩. البديعي، الصبح المتنبي، ٤ / ١٠٦.

٥٠. العكبري، ٢٧٧/٢/ج٣

٥١. العكبري، ص ٢٧٧.

٥٢. انظر عبود الخزرجي، ديوان المتنبي، ملحق المعاني

٥٣. عبود الخزرجي، ٥٩/ ١٣.

٥٤. العكبري، ٤٥ / ٢٦٥ / ج٤.

٥٥. انظر: ابن جني، اللمع في العربية، تحقيق وتعليق: حسين محمد شرف، ط١، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٣٠٤.

٥٦. الخزرجي، ١٠ / ١٥٠.

٥٧. العكبري، ٢٤/ ٣١١ / ج٣.

٥٨. السابق، ٢ / ٨٠ / ج٣.

٥٩. السابق، ص ٨٠.

٦٠. العكبري، ٢٤ / ٢٩٨ / ج٣.

٦١. العكبري، ص ٢٩٨.

٦٢. السابق، ١ / ٣٧٦ / ج١.

٦٣. السابق، ٢٥/ ١٢٥ / ج٣.

٦٤. العكبري، ٣ / ٢٩٩ / ج١ .

٦٥. العكبري، ١٧ / ١٠٧ / ج٤.

٦٦. العكبري، ٣٦ / ٢٠ / ج٣.

٦٧. العكبري، ١١ / ١٨ / ج٣.

٦٨. السابق، ٣ / ١٩٣ / ج٢.

٦٩. العكبري، ٢ / ١٢١ / ج٢،

٧٠. انظر: حسن الشاعر، ص ٥٩.

المصادر والمراجع

١- إبراهيم عوض، لغة المتنبي دراسة تحليلية، مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٨٧.

٢- ابن جني، اللمع في العربية، تحقيق وتعليق: حسين محمد محمد شرف، ط١، القاهرة، ١٩٧٨.

٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٤- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه، تحقيق: محمد محي الدين، دار الجيل، بيروت، ج١.

٥– أبو البقاء العكبري، التبيان في شرح الديوان، ضبط نصه وصححه: د. كمال طالب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ١٩٩٧.

٦– أبو العلاء المعري، رسالة الغفران ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح تحقيق وشرح: د. عائشة عبد الرحمن، ط٥، دار المعارف، مصر.

٧– جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٨– حسن الشاعر، "التصغير في شعر المتنبي"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج ٢٣–٢٤، ١٩٨٤.

٩– شارلي بالي، علم الأسلوب وعلم اللغة العام، في: شكري عياد، إتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم، ١٩٨٥.

١٠– الشحات أبو ستيت، المعركة النقدية بين ابن وكيع والمتنبي، ط١، مطبعة مصر، ١٩٩١.

١١– عائشة عبد الرحمن، الغفران لأبي العلاء المعري دراسة نقدية، ط٣، دار المعارف، مصر.

١٢– عبود أحمد الخزرجي، ديوان المتنبي، د. معلومات.

١٣– العقاد، مطالعات في الكتب والحياة، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

١٤– العقاد، اللغة الشاعرة.

١٥– القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد إبراهيم وعلي البخباوي، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان.

١٦– محمد فتوح أحمد، شعر المتنبي قراءة أخرى، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨.

١٧– ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، دار صادر، بيروت.

١٨– الواحدي، شرح ديوان المتنبي، ضبطه وشرحه وقدم له وعلق عليه وخرج شواهده: د. ياسين الأيوبي ود. قصي الحسيني، ط ١٩٩٩، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان.

١٩– يوسف البديعي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق:مصطفى السقا وزملاؤه، ط٣.

SUMMARY

Almutanabi was fond of diminution. He employed it in his poetry to serve his multiple poetical purposes especially praise and satire.

Therefore, this study comes to shed light on this phenomenon in Almutanabi's poetry, in terms of being an optional stylistic feature. This study collects, analyzes and studies the terms of this phenomenon through pronunciation, structure, sound and meaning. Also, it studies the minimized term from a lexical view, as well as horizontally through its role on the verse level. After that it studies it vertically in the whole poem and finally in the overall work of the poet.

The study ends with an applied study that handled this phenomenon in a whole poem of Almutanabi's in which the phenomenon is reflected in a plain manner.